

الثقافة وسيلة... والحضارة غاية

يسألني بعض الأحياء: هل الثقافة وسيلة... أم غاية...؟

واقول للأحياء أن الثقافة وسيلة والحضارة هي الغاية...

الثقافة تصنع الحضارات. تصنع الحرية. تصنع الحياة وتبهجها.

وفي هذا القرن العشرين – مثلا – توجد حضارة لم تكن تخطر علي بال اكثر المفكرين
تقدما في هذا الزمن البعيد او القريب.

ونصيبنا – نحن المسلمين – من تلك الحضارة المزدهرة دواما قليل بل ضئيل الي حد
الاسي.

نحن نلهث ولراء تلك الحضارة. ونكاد نتساقط من الأعباء والإرهاق, ونكاد نعزل عنها
عنوة ورغم أنوفنا..

وفي مقالاتي الأخيرة أوضحت من خلال تاريخ البشرية في القرون الوسطى السبب في
انبعاث الحضارة هناك, ومصرعها هنا... في بلاد المسلمين...

هناك في الغرب لقي الكهنوت مصرعه, وتم القضاء علي تجار الدين, فانبعثت النهضة,
وهنا في الشرق تركنا الكهانة تمسخ الدين, فاستغل في القضاء علي نصيبنا من الحضارة, وتركنا
مصيرنا يحدده تجار الدين منذ القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين..

وأنا احب بل اهدف الي تأكيد هذا المعني في كل مقالاتي الأخيرة, لا رغبة مني او من
الثورة في كشف أساليب تجار الدين الذين لا يزالون يعطون تقدما وظهور حضارتنا؟؟

هذا ليس هدفي فالتقدم الانساني كفيل بهم..

أما هدفي من هذه المقالات التي شاعت ظروف نشرها أن تبدا بعد عودتي من ارض النبي
– فهو توضيح حقيقة تاريخية كان من المحال أن يشار إليها بكلمة قبل 23 يوليو 1952.

أي قبل بداية الطوفان.. ايم كان الهمس بالحقيقة جريمة بل ذنبا عظيما.

ومقالاتي المتواضعة هذه ليست كل الحقيقة, فالوقت مشحون بأعمال أخرى, غير التتقيب في سجلات التاريخ وهذا لا يسعدني...

ومما لا شك فيه أن المثقفين في بلاد المسلمين يصنعون شيئا رائعا جميلا لو اتجهوا الي التاريخ — تاريخنا وتاريخهم — ثم عرفوا واقعا في الشرق وواقعهم في الغرب, ودرسوا قصة المأساة هنا وقصة الحضارة هناك... حينئذ يمكن البعث الجديد لا علي أساس الكهانة والدجل وتفسيرات وهمية للدين بل علي أسس علمية وتاريخية تجعل من حضارتنا شيئا محتوما... ونحن الملمون ورثة لحضارات كان لها دورها التاريخي في بعث نهضة أوروبا... الغرب..

والقران يمكن أن نستخرج منه كل ما يتفق مع التقدم الانساني ويساير التطور...

وفي قدرتنا أن ننصر علي الوهم لنؤمن بالعلم... بالحقيقة... بالهدف العظيم الذي كافح أجدادنا في سبيله حتى القرن الثالث عشر... ثم لم يعد هناك كافح دائم في سبيله بعد انهيار دولة بني العباس...

قد حدثتك أمس أيها القاري حديثا سريعا عن أسباب إقامة ذلك الستار الحديدي بين بلاد المسلمين وبين حضارة الغرب... التي هي من تراثنا...

قلت لك أن الذي أقام ذلك الستار الرهيب الكثيب هو الغرب نفسه... الذي اصبح يملك الحضارة, فلم يفعل بعد أن نهض مثلما فعل أجدادنا العرب الأمجاد من إشاعة الثقافة صانعة الحضارة في جميع الأمصار... بلا حقد وبلا تعصب... وبدون أن يزعموا — مثلما زعم الغرب بعد أن نهض — بأنهم ملكوا الثقافة وملكوا العلم والفن والأدب والموسيقي فمن حقهم أن يستعيدوا البشر جميعا... الذين لا يملكون تلك المقومات!

استعمر الغرب أذن الشرق — كما قلت أمس — بعد أن نهض واصبح يملك حضارة...

وتعاون معه تجار الدين... وسارت الكهانة في ركابه تمنع عن الشعوب الإسلامية الأفكار الجديدة والعلم الجديد والفن الجديد... تمنع عنا الثقافة وتعاون الغرب في إقامة هذا الستار الحديدي بيننا وبينه, لكي لا تقفز إلينا الحضارة!

وعشنا في كنف الغرب...

وكان الغرب... بعد أن قرر استغلال الشرق, بأرضه وكنوزه وايديه العاملة, قد اتفقت دولة علي توزيع الفريسة هكذا: الهند وبورما ومصر والسودان وجنوب شرقي آسيا ومستعمرات مبعثرة في تلك القارة الهائلة وفي أفريقيا لإنجلترا, وفرنسا مراكش وتونس والجزائر ومدغشقر والهند الصينية وصحاري في السودان ومستعمرات مبعثرة أيضا هنا وهناك, ولألمانيا جزر في الباسفيكي, ومستعمرات صغيرة في عرب أفريقيا...

وللصغيرة الضئيلة بلجيكا الكنغو, ولأختها هولند جزائر الهند المعروفة بإندونيسيا, وإيطاليا الصومال وطرابلس الغرب, ولروسيا القيصرية سيبيريا وجزء من آسيا الوسطي... . والدول التي لم يستطع الغرب احتلالها استطاع أن يوزع علي دولة النفوذ فيها والتوجيه..!

وكانت وسيلة الغرب في استعمار والاستمرار دوما علي استغلاله.. هي كما قلت في إقامة ذلك الستار الحديدي بيننا وبين الثقافة ثم الاستناد الي الكهانة وتمكينها من السيطرة علي عقولنا.

وكما قال المؤرخون الواعون, تلخصت وسيلة الغرب في استعمارنا في تمليك أرضنا الزراعية عصابة قليلة العدد من الإقطاعيين , ثم حماية هؤلاء الإقطاعيين بالقوانين... وبالحق الإلهي المزعوم الذي زعمته الكهانة علي عقولنا..!

وأیضا في فرض زعامات سياسية علي شعوب المسلمين, وأيضا زعامات اجتماعية. لهم علي الاستعمار حقوق, وعليهم هم حقوق له...

حق الاستعمار عليهم هو السير في ركابه والخضوع لرغباته... وحقهم علي الاستعمار حمايتهم والنفخ فيهم ومقاومة كل من يهدد وجودهم , ثم تمكينهم من حكم البلاد..

صحيح أن الغرب لم يبخل علينا بجزء من حضارته... القى علينا من خلف الستار الحديدي ببعض الفتات.. سمح بإقامة المدارس في حدود معينة لا تخرج عن أعداد موظفين يقومون بالعمال في دواوين الحكومة... التي هي في نفس الوقت تعمل في حدود مصالح المستعمرين!!

وسمح لنا بإقامة السكة الحديد واستعمال التليفون والبرق والصحف . والمصارف والكباري والبيوت البيضاء في المدن...

سمح لنا بذلك لا رغبة منه في دفعنا الي حيث الحضارة... بل ليستفيد هو من كل هذه الأشياء التي هي جزء مما وصل إليه التقدم الانساني...

فهو الاستعمار كان لا يستطيع أن يقيم بين ظهرائنا بلا قليل من النور, يستغله في قضاء مصالحه!!

فمثلا الترع والمصارف, أنشئت في مصر لكي تنتعش زراعة القطن فتنتج مصر حاجة مصانع النسيج في لانكشير منه...!

ويغض الاستعمار الطرف في نفس الوقت عن انتشار البلهارسيا بعد انتشار الترع والمصارف وفتكها بالملايين من أبناء البلاد..!

وانشا الاستعمار الخطوط الحديدية لكي تحمل القطارات البضاعة التي يأخذها منا وأيضا البضاعة التي يبيعها أئينا... وكذا فعل بكل ما نراه ألان في بلاد المسلمين من آثار قليلة للحضارة لا تكاد تذكر!!

كذا أقام المستشفيات او سمح لنا بها في حدود لا تتعدي موظفي الدواوين, والأيدي العاملة القليلة في المدن والحكام!

والكهانة ماضية في التأكيد لنا ان المدنية زيف ورجس عظيم... والعلم من صنع الشيطان!

والاستعمار لا يجد ابرع من هذه الدعوة في مواصلة استبعادنا... وفي نفس الوقت يتقدم هو الي الإمام... الي أقصى قمم المدنية... والعمران!!

المدنية زيف.. الحضارة شر.. التقدم خروج علي مشيئة رب العباد.. هذه هي دعوة الكهانة في بلاد المسلمين!!

كأن اكتشاف وسائل لعلاج الأوبئة والأمراض واختراع الكهرباء واقامة المصانع وتثقيف العقول وتتوير الأذهان جريمة تغضب رب العباد!

أي ان جهود العلماء والأدباء والفنانين والمفكري والموسيقين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي أوصلت الحضارة هناك الي هذه القمة العالية كانت جريمة وسياسق — أذن — هؤلاء العلماء الذين صنعوا التقدم البشري الي الجحيم ومعهم الأدباء والشعراء... فولتير الثائر الحر... وهو جو الداعي الي تخلص البؤساء, و"بيرون" المغامر الذي ثار علي مجتمعه الارستقراطي الرجعي... وبوشكين وتولستوي وديستوفسكي الذين أشفقوا علي العبيد والجياع وجيته العظيم كبير كتاب ألمانيا الذي أراد ان يشيع في عصره انتفاضات الفكر والعلم والفن... وشوبان وبيتهوفن وتشايكوفسكي، الكبار الذين حركوا قلوب البشر بعد الجمود!!

و "كلود برنارد" و "سيكار" الفرنسيان العالمان اللذان كفا لنا سر الغدد في الأجسام... و "بافلوف" الروسي وباستور الذي حقق معجزة الميكروب, وكوخ ولأفران وأرلخ الذين حددوا مكان الطفيليات باعثة الاوبئة... والبارع الماهر "سمبسون" الذي حول الجراحة من عمليات أشبه بعمليات الذبح في السلخانات الي شيء بسيط يمكن ان يتم بعد تخدير المريض بالأثير والكلوروفورم فانقذ البشرية من عذاب والم كبيرين!!

هؤلاء قادة الحضارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ارتكبوا أثما كبيرا — أذن — اغضبوا السماء وخرجوا علي طاعة رب العباد باعتبار ان المدنية زيف وبهتان كما تقول الكهانة وكما يزعم تجار الدين والمشعوذين.

فكيف كان – أذن – يمكننا نحن المسلمين ان ننهض ونحقق البعث الجديد في ظل هذا التفكير الرجعي الذي لم ينادي به القران ولم تقله لنا آيته البيئات المليئة بالحق.. بل العدل.. بل الحرية وبالذعوة الي العمران والعمل...

وفي آياته تلك البيئات تكمن الحقيقة الكبرى.. هي أننا نحن المسلمين يمكن ان نستمد من قراننا كل ما يدفعنا نحو الحياة... نحو الحضارة...